

عبد السلام ياسين

مذكرة

إلى من يهمه الأمر

عبد السلام ياسين

مذكرة

إلى من يهمه الأمر

(ترجم من النص الأصلي باللغة الفرنسية)

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وإخوانه وحزبه

مذكرة

إلى من يهمه الأمر

من عبد السلام ياسين

"ملك الفقراء"

للملك الشاب محمد السادس رصيد من المودة تكنها له شبيبة مغربية اكتشفت فيه صاحباً لها، رمزا لتحررها، بشرى لها بمستقبل يبش في وجهها بعد عبوس. فخلال الأسابيع الأولى من حكمه، وأينما ساقته حملته التدشينية، كان الملك الشاب على موعد مع الحماس الفتي الجياش.

يستفرغ الجهاز المخزني الذي نظم جنازة الراحل الحسن الثاني جهده ليعرض على الجماهير العاشقة للتصفيق والهتاف شابا وسيما، طلق الحيا، سخيا بالحفاوة لمن استقبلوه بحرارة.

سُحر العرية التليدة والأحصنة ذات الحوافر المدهَّبة، نشوة المواكب المحاطة بالخيالة العصرية، سعادة غامرة تعبر عنها الجماهير المصطفة على امتداد شوارع كُسيّت حلة جديدة تليق بالمناسبة. وياله من مشهد حين تعكسه شاشات التلفزة!

مشهد جميل! إخراج ناجح لدولة مُثَلَّة تعرض ملحمة يدير فصولها نظام مُحك يتقن منذ قرون فن التلاعب بالألقاب والرموز.

شباب وصدق! الكل يدفع إلى الاعتقاد أن شعاعا يبرز بعد ليل طويل وأن ظلام فترة حالكة ينزاح ليتنفس صبح وليد. إنه فجر سحري يعلن عن مقدم ربيع طال ترقبه.

جميلة تلك الوعود المنشورة على الرؤوس بسخاء، لكن ما أبشع الخيبة حين تستفيق الشيبية بعد حين من الأمانى المعسولة على مرارة الواقع التعس! فبعد الاستعراضات والاحتفالات، سيرحل الشعر المخلوق في الأجواء ليحل محله النثر المثقل بالبطالة والبؤس.

لن تلبث الصورة المزرکشة والنية الحسنة للسلطة الرمزية الجديدة أن تحوئهما الإكراهات الاجتماعية الاقتصادية، والجوارح المستنصرة المتحفزة للاستماتة في الدفاع عن امتيازاتها والمحافظة على الظروف السياسية الممكَّنة لعهد الجمود. سيبدل محركو الدواليب خلف الستارة، الفاسدون المفسدون المتمرسون بأساليب التعمية والتزيف كل ما في وسعهم لمناهضة الإرادات الشابة المبتدئة.

لا يمكن للنية الحسنة المتفتحة أن تصمد أمام دهاء الثعالب العجوزة، ولا يمكن استهلال صفحة جديدة وزرع حقل جديد مع جيل هَدَّه اليأس بالاعتماد على ثقافة العلاقات العامة. لا يمكن أن نمنع في ذر الرماد في عيون العالم و المغرب على شفا جرف هار، كما لا يمكن أن ننسج على منوال العهد البائد بعد أن دقت ساعة الحساب.

خطوات في سبيل الخلاص

نوزع الصور والكلام بسخاء عسانا ننسى ونُتسى بالخطبة المستبشرة المتفائلة وجة الحقيقة الكالح.

كأن المستشارين الشباب للملك الشاب يريدون أن يفكوا عن الشعب ضيقه بالتعزيمات الإعلامية. عجزنا عن منحهم شغلا وخُجْرًا، فلنمتعهم بالفرجة ولننختمهم بالابتسامات! ألا يحرص المستشارون الشباب التقنوقراط على الاستفادة من دروس

التاريخ؟ فقد كان الواقعون تحت حكم نبيرون أحسن حالا، لأنه كان يؤمن لهم الخبز اليومي قبل أن يتعاطى مشاهد الفخامة والعظمة.

تحسب البطانة الشابة أنها قادرة على نحو الصورة المتجهمة لفترة عكث فيها اليد الجبارة لجلادي ترمارت ونفاق ديمقراطية مزيفة تشهد على نفاقها الأيمان المعلنة على الملأ أن الانتخابات لم تزور أبدا، وأن مقاليد الأمور كانت دائما في يد الشرف والحقيقة، وأن التناوب التوافقي ميزة للديمقراطية يحق الافتخار بها.

تعرض الشبيبة الهاتفة باسم محمد السادس نهايا عن طبقة سياسية شاركت طوعا أو كرها المخزن الشائخ بهتانه وخيانتته لمبادئ الإسلام، نبذت إسلام المسلمين ودانت بإسلام الشعارات الحاوية. كما تُعرض الشبيبة الهاتفة عن الديمقراطية الحسنية المفرغة من كل محتوى، الملوثة بطعم طغيانٍ لا ملة له ولا مبدأ.

ونظرا لوعيهم بانطماس المعالم وفقدان الهوية لدى هذا الجيل الفار من مغرب البؤس على متن قوارب الموت رغم المخاطر التي يعرفها الخاص العام، فإن المستشارين الشباب يزاجون بين التمايم العتيقة والحديثة من أجل إقناع هؤلاء الشبان والشابات الذين لم تعد لهم ثقة بأحد بتبني عقيدة بديلة سيتكفل النشيد الوطني والراية الحمراء في المدرسة بغرس الإخلاص لها في القلوب الفتية. وستقوم حملات التضامن والشارات المقدمة بخمسة دراهم بترسيخ دعائم الثقافة الجديدة، "ثقافة التسول".

لكن الإغراق في تقلب التحيات الصباحية للراية الوطنية، واليد على الفؤاد، واستنفاد الجهد في الصدح بالنشيد الوطني لن يلبثنا أن ينهزما أمام جحافل البؤس لتفقد الصنمية الجديدة صدقيتها. لن يستطيع تغيير الترسنة الإيديولوجية أن ينفخ في المغاربة الروح الجديدة التي ستحركهم وتمنحهم الثقة بمستقبلهم. فدورات اليد الميسولة للصدقة المنظمة سنويا تمثل تقليدا يتحذر تدريجيا في المفكرة المخزنية عساة يُطبع علاقاتنا مع التسول.

من يخدع من؟ هل نحاول أن ندلس على الشباب اليائس الذي يبيع ما تملك الأسرة -على قلته- ليشتري تذكرة الموت ويمتطي قوارب الخطر بطنجة؟

من تعوزه المبادئ الصلبة والإرادة الماضية لا يستنكف من البحث عن يقينياته في سوق الشعارات الرخيصة. فلتتخموا الجبايع بحكايات الوفرة! ولتعرضوا سراب الواحة الغنّاء على أنظار القطيع الظمآن في صحراء الوعود المخلفة! لن تكون الحبيبة إلاّ مضاعفة، ولن تكون النتائج إلاّ أشدّ وخامة حين تتبدد الأحلام الخلافة، وتكشف الحقائق المرة عن ضخامة البهتان.

ميراث ثقيل

ها نحن قد أحسنّا الانطلاق بتركيز جميع الآمال في شخص وجه جديد يظهر على الخشبة! وعلى الكتفين النحيلتين لولي العهد، البريء من جرائم الأمس، تتكسد فجأة مسؤوليات جسام، وألها كنس إسطبلات عفنة، وتطهير المشهد السياسي والإداري الموبوء بنفوس متمرغة في الرذيلة، باعها أصحابها للشيطان. وهكذا، بعد أن كان ضحية من ضحايا الأمس، أصبح الملك الشاب اليوم مدعوّاً إلى تحمل مسؤولية إنقاذ البلاد من الهوة التي تكاد تنهار فيها.

لا أحد يجهل من المراقبين للشأن المغربي- إن تحلى بقليل من اليقظة- أن النظام بأكمله في تحلل سريع، ولا يكفي لتطبيب وضعه المعتل إرسال "الإشارات القوية" التي يحاول عبرها القصر أن يبدي حزمه ويثبّد سلطته برد مظلمة هنا أو إلقاء خطبة مؤشّية هناك.

ولّى الزمن الذي كان فيه القمع البوليسي وهوى ولي الأمر سياسة تُطبّق، عقى الزمن على عهد كانت فيه الألقاب الطنانة والخطب الرنانة تأخذ بألباب حاشية من المداهنين الخانعين المشتركين في جريمة التفرير بالشعب القاصر. هذا الشعب الأمي الذي طالما خدعه "الإجماع التوافقي" لطبقة من محترفي السياسة ينتظر اليوم أفعالا. هذه الشبيبة العاطلة المعطلة تتعاطى أنواع المخدرات وترتمي بين برائنها هربا من المجتمع الذي يَنجَهُمُهَا، وتفر من ظل مستقبل معتم. فهي اليوم تطالب بحقها في الشغل، وبمكائنها في الوجود.

ما الذي على الشاب محمد السادس- الذي يمنحه جيله التأييد بكل سخاء- أن يفعل؟ ماذا في مقدور فتى الأحلام أن يفعل تلبية لنداء الشعب المستضعف وتحقيقا

لآماله؟ ما الذي عليه أن يفعله؟ وماذا يستطيع أن يفعل لتدعيم سلطته وتقوية مركزه؟ لكي يحدث، بل يبدأ التغيير، الذي تحفو إليه البلاد لا بد أن ينطلق "ملك الفقراء" -ويا لجلالة القلب!- من القطيعة مع ماض ليس له من الجلالة سوى الاسم والسوط. يحتاج "ملك الفقراء" إلى منجزات رجولية تمكنه من الارتقاء إلى مستوى قائد يليق بالآمال العريضة التي بعثها اعتلاؤه العرش في نفوس الشباب المغربي بشهادة الاستقبالات الهائلة المخصصة له.

هل يمكنه أن يتحرك ليستحق الهالة الخلقية ويفرض سلطته الدنيوية؟

وهل يستطيع التحرك؟

ما العمل؟

إما أن يتحفز العاهل ويلم أطراف شجاعته ثم ينقض بالعزم الذي يمتاز به الزعماء ليحطم العوائق، أو أنه سيقع في دهاليز القعود والخنوع.

إما أن يتحلى بالحزم والاقترحام، أو تعود رتبة الجهاز المخزني والميل إلى الحلول السريعة السهلة لتخفف من حرارة العمليات التدشينية. وحينئذ سيجمحم المهر العربي الأصيل، ويمتنع عن تخطي الحاجز، ثم يتراجع تدريجيا، فيفوته الموعد مع التاريخ.

واجب مقدس

أنت يا صديقي القارئ! أنت يا أخي في العقيدة! أنت يا أخي! يا من تشاطروني حسرتي على بلدي الواقف على شفا جرف هار بينما كانت ولا تزال تطفح وجوه بطانة السوء بالبشر وهي تحرق البخور على نصب الأوثان المقدسة! أنت أيها الشعب الصادق النزيه، أنتم أيها المثقفون الفضلاء الشجعان، يا من تتناغم كلماتكم مع الخطاب المعسول للمداهنين! غضوا الطرف عن وعورة أسلوبي وأصيحخوا بأسماعكم وعقولكم لكلماتي المكلومة!

لا يمكن أن تعبر الكلمات اللينة عن الذهول الذي يصيب من يتأمل الواقع، ولا أن يعبر الصمت المطبق عن الإحصائيات الكارثية التي تضع المغرب في مؤخرة الركب. لا تستطيع الكلمات اللينة، ولا الجمل المدججة، ولا التعابير الباردة

والأسلوب الذي يسري فيه مخدر الامتثال أن يعكسوا فداحة الوضعية. قد تكون كلماتي حادة، عنيفة أحيانا، مثيرة دون شك في حكم مجمع السادة المفكرين، لكن القضية النبيلة التي يناضل في سبيلها كل مواطن حر يسكنه هدف سامٍ تتطلب منا جميعا حدا أدنى من الصراحة والنزاهة الفكرية حتى نكشف عن الحقائق المنكرة، ونوقظ العقول الغافية.

نعم أم لا؟ هل نحن مطالبون، باعتبارنا مواطنين مهتمين بمستقبل بلدنا، بإدانة الغش والغشاشين؟ نعم أم لا؟ هل للملك الشاب الحق في الإصغاء لأصوات غير انتهائية قبل أن يحوله الميل الغريزي لكل أمير يتهاك الكل على إطرئه إلى طاغية غشوم؟

نعم أم لا؟ هل يكون لهذا المركب التائه، هذا المغرب الذي أصبح أمة متخلفة، نصيب من رعايتنا؟

فلترحفوا على بطونكم يا أصحاب الهمم الخسيسة! ولتصفقوا على ألعاب السيرك أيها المتفرجون الفضوليون! أما نحن رجال العقيدة ونساءها، رجالا صادقين كنا أو فتيانا، فلنا في الموضوع مقال، ولنا للتبليغ رسالة. لذا نعلن مقالنا ونصدع برسالتنا، غير آبهين بالضحالة السياسية التي لا ترى في كل مسلم ملتجأ أو مسلمة محتجة إلا أفرادا من شرذمة من الوقحين تصدر كلمة نائية متمردة على المحاملة التوافقية النبيلة.

أسئلة محرجة

مسكين هذا الملك الشاب! إنه يرث تركة ثقيلة جدا، وتطرح العديد من الأسئلة بشأنه، ويشكل منعطفا ينتظر المنتظرون عنده بتلهف. ماذا يريد أن يفعل الملك الشاب الناهض حديثا إلى الحكم؟

ماذا يمكنه أن يفعل؟ هل يستسلم لسحر المدائح التي يكيلها له الوصوليون؟ هل يسلم الزمام لسدنة الحكم؟ هل ينهزم العقل أمام تقاليد الحكم المطلق الموروث؟ هل سيظل محفوفًا بالمتزلفين، تتلاعب به أيدي الخونة؟ هل تستمر هيمنة القوى الزراعية للتنافر والعاملة على تعميق الشقة بين المغاربة وتفريقهم إلى طبقات متدابرة؟ هل

يتحوّل إلى هذا الوجه الجديد، الذي يجسد في أعين الشبيبة المتحيرة وعدا بالخلاص، توجُّس الشعب من النخبة السياسية؟ ما الذي يستطيعه ملك مبتدئ مثقل بالأعباء، مطالب بالإجابة عن سيل من الأسئلة الملحة، ينوء به وزر نظام يقوم على فكرة أن الملك قادر على فعل أي شيء ويجب أن يفعل كل شيء؟

لن يستطيع شيئاً إذا استسلم لترانيم سدنة العهد القديم، وسلم مقاليد حكمه إلى الحسابات التناوبية لتتكفل "بترشيد" سير الأمور.

لكنه سيحقق الكثير إذا تسلح بالجرأة والعزم وأظهر للجميع قولاً وفعلاً أن الذي يقود القافلة ليس شخصاً مائعاً، مدجناً، تتلاعب به الأيدي الماكرة المتآمرة في دهاليز القصر المظلمة. فلنغض الطرف عن جنون العظمة الحاد الذي أُنجه زواج بئيس بين ديماغوجية عصرية ونخوة علوية ترعاها دار المخزن.

ولنكن صرحاء! لنتكلم بلغة الأرقام الواضحة والمعطيات الواقعية المحسّنة!

يشتهر المغرب بكونه أسرة واحدة يغدق عليها نعمة ملك شع نوره على سائر أرجاء البلد السعيد، أب عمّ حدّيه كل المغاربة، عقل تستلهمه الحكماء. فلطالما اجتهدت الآلة الدعائية المخزنية الحاذقة لتعرض في مسرح البهتان الأدلة "الدامغة" والصور "المشرقة" لمغرب "الأمن والرفاهية"، ولتكيل للجياح من أفراد الأسرة المغربية الوعود والأحلام. أما المشاغبون المعكرون صفو الأمة فهم أعداء الشعب الممقوتون : أهل اليسار البارحة، وهم اليوم الملتحون والمحجبات من أهل الإسلام.

أي أسرة تلك التي خرجت من رحم حقبة القبضة الأوفقيرية الجهنمية، ثم بعده ملحمة تزمارت، والاحتفئات التي يريدون تناسي عهدها، والمحاکمات الصورية التي تسبقها صياغة مصائر المتهمين؟

ثم استفحل وضع حقوق الإنسان في مغرب الأب "الرحيم"، وبلغ حدا لم تعد معه الوضعية الداخلية والضغوط الخارجية تسمحان بغض الطرف عن الانتهاكات الصارخة لحقوق المعاندين المتصلبين من أبناء وبنات العائلة المغربية الناعمة برعاية أب الأمة.

وفي ظل هذه الأوضاع البوليسية التي انعدمت فيها كل رقابة، اغتنمت الذئاب المحتمية بصاحب الصولة والصولجان، فعربدت وترعت وكدست... بما أنك خليل

صَفِيٌّ للنظام فأنت في مأمن من كل محاسبة، ولك كل الحقوق! أما أفراد الأسرة (المحبوبون جدا) ممن لا سند لهم ولا معين، ففي جعبة الحاوي ما يلهيهم عَمَّا هُمْ فيه، إذ كلما طفح الكيل بهم أخرج لهم من كُمَّه أرنباً، كما يفعل البهلوان، يستغلهم ثم ينسل هاربا من مشاكلهم.

أتقنت الآلة فن إنتاج البؤس للجميع والغنى الفاحش لأهل الخطوة، أتقنت فن الإنعام على المقربين، وللعصاة المتمردين العصا!

قضايا ملحة

يرث العاهل الشاب -الذي يجب أن لا يستسلم لنشوة الحماس المؤقت- مشهداً تسوده الفوضى العامة، والبؤس الذي هو نصيب الأغلبية العظمى، والترف الفاحش لحفنة من المحظوظين، والرشوة التي أصبحت تقنية للتسيير والحكم، والتلاعب بالانتخابات الذي أضحي مؤسسة وممارسة ديمقراطيتين.

وفي النهاية، ألقى النظام نفسه غارقاً في إفرازاته، مضطراً إلى البحث عن مخرج يقيه الكارثة. وهكذا طال التفاوض بشأن "التناوب التوافقي وميثاق الشرف" قبل أن تعقد الصفقة... بالشروط التي نعرفها جيداً.

لكن الملك الشاب، رمز الغد الواعد، ليس مسؤولاً عن خطايا الآخرين وجرائمهم، ففي قلبه يسكن العطف على المحرومين بدليل بساطته واستقباله الحفي للحشود من ذوي الحاجات الذين يصطفون على بابه كل يوم تطلع عليهم فيه شمس الظلم الاجتماعي الملتهبة.

اليوم، وبعد أن أصبح الأمير الطيب ملكاً يُحْطَبُ وُده ويُحْسَدُ على مركزه، أصبح لزاماً عليه أن ينفخ في الآلة روحاً جديدة، وأن يعيد تنظيم العلاقات استعداداً لإنطلاقة جديدة.

لا بد أن يستفرغ الملك وُسعه، كامل وسعه، وإلا سيكون من العبث انتظار انبثاق نتائج عميقة من خطوات هامشية وجزئية. لا بد من فعل يؤسس، فعل يمنح الشرعية لتسيير جديد للدولة، لمنهج جديد في الحكم، لعدالة أخرى، لتعليم راشد،

لعدل اجتماعي يلغي الامتيازات ويقارب ويسدد بين جانبي الهوة السحيقة الفاصلة بين الحفاة العراة والسادة الذين يرفلون في النعيم.

لابد من النهوض بالاقتصاد وتشجيع الاستثمار المنتج المؤقّر للشغل...

لا بد أن تطيع الأحداث بطابع جديد. ويبدو الأسلوب الجديد للملك الشاب خطوة في هذا السبيل، لكن الساعد الذي يريد تشغيل المحرك المغربي يحتاج إلى القوة. لابد للعقل الذي يصبو إلى الإتقان من الزاد الروحي، ولابد للطموح الناشئ من غاية سامية ورافعة روحية. لا مناص من إعادة النظر في النظام بأكمله. لا بد من وضع القطار على سكة جديدة. ولذا لا بد من قاطرة قوية ويد حازمة. لا بد من مراجعة شاملة، فورا الواجهة المزينة يوشك البنيان أن يَنْقُصَّ.

وقد أصبحت الضرورة تفرض التدخل العاجل والحاسم قبل أن يتلقى البناء المنخور ضربة قاضية من أحد هذين الاستحقاقين : مسألة الصحراء وافتتاح السوق العالمي بعد عشر سنوات.

فقضية الصحراء ليست سوى إرث مسموم خلفه العهد الغابر، إرث خلفته سياسة التعاضم الدائسة على كرامة الرعية. إخواننا الصحراويون بين خيارين لا ثالث لهما :

• الخيار الأول أن يخضعوا لملك وطأ بالقوة أكناف عرشه وألقى إليهم أمره بالركوع له حسب تقاليد البيعة المخزنية المقيتة. طقوس بهلوانية لا تمت بأية صلة إلى الميثاق الإسلامي الجليل الذي يلزم الشعب الحر بطاعة الحاكم ويلزم الحاكم المنتخب بالعدل نحو الرعية. إن الحكم العاض الذي يلقي للمسلمين الأمر بالركوع لغير الله وصمة عار على جبين التاريخ الإسلامي الذي يطبعه الاضطراب. وهكذا، تم إخضاع الصحراويين -ذوي الأنفة والإباء- للمراسيم المخزنية، وأرنا على الشاشات هامات شيوخ القبائل تنحني أمام الجلالة المتصلبة المستعلية. يا للإذلال! أي جرح غائر أصاب عزة قوم ما برحوا متمسكين بالإسلام!

• الخيار الثاني أن يصغوا إلى نداء العصابات المسلحة التي تخاطبهم بلغة العزة. فهل يا ترى سيصوتون في الغد القريب لمغرب موحد مسلم حقا؟ مغرب تعاد صياغته

وبناؤه، أم أنهم سيعتبرون من الإهانة التي لحقت بهم سالفاً ومن القمع الوحشي الذي مورس عليهم مؤخرًا فيختاروا الكرامة والحرية وينضوا تحت اللواء الآخر؟

امتصت رمال الصحراء ملايين الدولارات التي أنفقت في تشييد مدن حديثة جديدة، وازداد فقر المغرب، وتضاعفت ديونه. لم تفلح سياسة الفخفخة المستكبرة إلا في تعميق الهوة بين عضوين من جسد واحد، من شعب واحد.

لا بد إذن أن نراجع انتماءنا الإسلامي الذي نصدح به نهاراً ولا نخجل من طعنه ليلاً.

أما نحن، فقد ظل موقفنا من القضية واضحاً، لا التواء فيه ولا لبس، وهو التشبث بوحدة الشعوب المسلمة عبر الحدود الغاشمة الموروثة من تاريخنا الاستعماري، قديمه وحديثه.

أما القضية الكبرى الثانية فهي ما يُخشى علينا أن تُهوي فيه السوق المفتوحة بسيوفها و نحن عُزّلٌ لم تنتهياً للنزال. وسيتبدى لنا ضعفنا أمام الحرب الاقتصادية الوشيكّة من خلال الإحصائيات المبينة لموقع المغرب في الخارطة العالمية.

إن الحديث عن المبادئ يظل فضفاضاً ما لم تعضده المعطيات الواقعية، وإن المبادئ سرعان ما تنفلت إذا لم تقيد بمهمة محددة ينهض بها ضمير حي. لذا نسرد بعض الأرقام، علماً ندرك مدى خطورة الوضع، وضخامة الجهد، وعلو المهمة التي ينبغي أن يتحلى بها من يحاول التغيير حتى يتمكن من الصمود للضربات العنيفة التي سيتلقاها أثناء الطريق.

لست هنا نذير شؤم تُدعّره المخاطر الواقعة والمحتملة، بل يدفني إلى ما أقول واجبي بوصفي مسلماً أن أمر بالمعروف وأُهي عن المنكر.

فمنذ فترة ليست بالقصيرة ونحن ندين الأساليب الخيرية التي تُصّب على قمة الهرم السلطوي رجالاً يحتكر الحق في تسيير شؤون البلاد والعباد حسب هواه، فلا أمر إلا أمره، ولا علم إلا علمه، ولا مال إلا ماله.

أما الدستور الممنوح والمرمم بين الفينة والأخرى حسب ما استجد من ذوق أو هوى، فليس سوى صيغة حديثة للفرمان الإمبراطوري التقليدي. وهكذا، بحكم

الدم الذي يجري في عروقي والإنجاز العظيم الذي حققته حين تفضلت على الناس ببروزي للوجود مولوداً مقدساً، لي الحق في أن أتحكم في مصائر العباد وأن لا يكون خلاصهم إلا على يدي!!!

إحصائيات تنذر بالإفلاس

هاكم ثمرات هذا المنهج البديع، منهنج التحكم الاستبدادي :

تصنف إحصائيات الأمم المتحدة الدول حسب مؤشر نموها البشري، ويقع المغرب في المرتبة 125 متخلفاً عن جيرانه -خاصة تونس والجزائر- الذين يسبقونه بعدة مراحل. إنجاز رائع ونتائج باهرة!

10 ملايين مغربي يعيشون فقراً مدقعاً بأقل من عشرة دراهم يومياً.

ثلاثة أرباع المغاربة العاملين لا يحصلون على الحد الأدنى من الأجور بالمغرب أي 1660 درهم في الشهر.

أصبحت أحياء الصفيح مسكناً طبيعياً لعدد كبير من المغاربة يتضاعف بسرعة.

في المغرب تتفاوت الأجور ما بين 1 و1000 (بثلاثة أصفار) بينما لا يبلغ بل يقل أحيانا هذا التفاوت عن نسبة 1 إلى 10 في أوروبا.

23% من الشباب المغاربة غارقون في مستنقع البطالة. شبيبة تتخدر لتنسى أو "تَحْرُكُ" هرباً من البؤس الجاثم. لمن لا يعرف العامية المغربية، "تَحْرُكُ" أي تفر من البلد مُبْحِرَةً نحو لهيب الألم أو قَرَّ الموت.

أكثر من 100.000 متخرج من التعليم العالي (أطباء، مهندسون، أساتذة، تقنيون متخصصون) يجتزون بأسهم في مقاهي أحيائهم أو يتظاهرون في شوارع العاصمة.

53% من المغاربة (وهو الرقم المعترف به رسمياً) أميون تسوقهم الدعاية الرسمية أو المزايدة الحزبية بكل سهولة : ففي بلادنا يتواطأ بؤس الناخبين وخبث المنتخبين بمآلهما فساد الإدارة البوليسية على تحويل انتخاباتنا إلى مسخرة مأساوية.

بين سندان الرشوة ومطرقة العولمة

أزكمت رائحة الفساد كل الأنوف الحية بعد أن أصبحت الرشوة منهج حياة. فالكل يمد يده، ابتداء من العون الواقف عند أسفل درجة في السلم الإداري، وانتهاء بالسادة المتريعين على قمة الهرم، كل حسب تعريفته، بدءاً من الورقة الحمراء إلى الظرف المكتنز. أما الشيك المحول إلى رصيد في البنك السويسري، فهو وسيلة الأداء النظيفة لمن علا في سلم السلطة.

لا عجب إذن أن يتوجس المستثمرون الأجانب إذا ما خاطروا بأموالهم في بلادنا، خاصة بعد أن صارت بذكر جهازنا القضائي الركبان: فعلى أبواب المحاكم، يعقد وسطاء السوء صفقات بيع الدم، ويتفاوضون بالنيابة حول الحكم الذي يرضي الربون... كأنهم يبيعون ماشية في السوق.

إذا ما أضفنا إلى كل العلل التي تنخر كيان إدارتنا البطء المكتبي، ومماثلة المسؤول الذي لا يمكن أن يتحرك إلا بعد أن "تدهن" يده "دهناً" معتبراً، فإننا ندرك سبب إعراض المستثمر -الضروري لاقتصادنا- عن بلدنا.

إنها مسألة حياة أو موت. فالأمر يتعلق بتشجيع إقلاع اقتصادي يضمن لنا حضوراً تنافسياً في السوق العالمية. فكيف إذا يمكننا تحقيق ذلك ومؤسساتنا وجهازنا القضائي وإدارتنا في أوضاع مخزية؟ كيف نقنع الأجانب بالاستثمار في بلدنا والإجراء الإداري البسيط يقتضي شهوراً أو سنوات؟ فإذا كانت عملية التوقيع على ملفك لا تستغرق سوى ثلاث أو أربع ساعات في أورنا الغربية، ففي بلدنا عليك أن توطن نفسك على الصبر والانتظار بحكمة إلى أن يرضى الوسيط المقرب من الدوائر العليا عن حصته من أسهم شركتك، أو تصحو من غفلتك و تفتيق من مثاليتك. لكي تستثمر في المغرب، عليك أن تحترم "قانون القهوة" من أسفل السلم الإداري إلى أعلاه، عليك أن تحدد اختيارك الإداري من الأول: "القهوة" أو القيام برحلات ماراطونية بين هذا المكتب وذاك، بين هذه المصلحة وتلك دون أن تكون متأكداً من النتيجة!

...والمخدرات

كيف نجابه عوامة تدق على الأبواب - إن لم تكن قد تجاوزت العتبة- بشباب تعبت به المخدرات؟ هذا ملف ساخن ينبغي أن لا نتجاهله.

إن الحديث عن المخدرات في المغرب شائك : إنها سرطان متحذر لا أمل في استئصاله مادام النظام فاسدا، ومادام جشع أباطرة المخدرات مستفحلا، ومادام فلاح الأقاليم الشمالية معتمدا على زراعة القنب الهندي. هذه العوامل تكرس إنتاج هذه البضاعة وتسويقها، فتتسع دائرة المقبلين عليها في بلدنا. لطالما أدانت وسائل الإعلام الأوربية المشاركة المخزنية لشخصيات مقربة جدا من النظام في تجارة المخدرات، ولا عجب!

هنا أنقل معطيات وإحصاءات استقيتها من الإعلام الغربي مضطرا. فما دامت "الشفافية" قد جفّت ديارنا، فلا محيص لنا من الإصغاء إلى ما يقوله عنا الآخرون، لا مناص لنا من طلب الخبر من الأمم الحرّة المدركة لخبايا الأمور. إذ كيف السبيل إلى التحقق من الخبر والأفواه مكمنة والآلة الدعائية الرسمية تروج الأكاذيب ليل نهار؟

لكن لم الاستشهاد بالصحف والإصدارات الأجنبية التي لم تكن أبدا لطيفة مع الملك الراحل؟ إن الأحداث التي تنقلها هيئات جادة تبتعد عن الارتزاق و الذيلية في هذا الصدد تثير الاشمزاز. غير أنني بنقلي هذه المعطيات والإحصاءات لا أريد أن ألقى بالأرقام المخزنية فريسة تنهشها الألسنة الفارغة. فقد أفضى الأموات إلى من سيحاسبهم، وبقي الأحياء يتجرعون جيلا بعد جيل مرارة الكأس التي سقاها إياها أسلافهم.

يجب أن يعرف الشعب المضروبة عليه أسوار التعتيم والتجهيل حقيقة ما يجري. يجب أن يعرف حتى ينحسم كل حبل يعلق قلبه بحكم الجبر. يجب أن يعلم الشعب ويدرك مدى فظاعة جرائم الحكم المتسلط ليلفظ الطواغيت ويتسلح بتعاليم الإسلام المقدسة ليتحرر من نيرهم.

حذرنا رسولنا صلى الله عليه وسلم من حكام العض، ولفظ "العض" يعبر جيدا عن منهج الجبر في الحكم.

ونحن حين ننقل "المنجزات" المخزية لحكامنا ونصوغها بالتعابير الحادة والألوان القائمة لا نثار مظلمة أصابتنا منهم. القلوب المرتعدة والهمم الخسيسة هي التي تتكالب على الأجساد الباردة. نحن نعتبر بما صار إليه الأموات، ونستنكف أن ننهش لحومهم، لكن لا بد أن ننقب عن الحقيقة ونصدع بها. فلا نامت أعين الجبناء!

حقائق مرة

علينا أن نعرض الحقيقة على النفوس الأصيلة، الحقيقة الصريحة العارية بدل أن نقدم إليهم الأطباق المتبلة بالبهتان. أما المنافقون الكذبة الذين لا يخشون الله ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر فليسوا سوى عنكب بشرية غارقة في وحل الهوموم الدينية، تتلاعب بها دوامة حياة عدمية لا معنى لها ولا قيمة. أرجو أن يكون محمد السادس من ذوي النفوس الأصيلة. أما هؤلاء المحبوسون بين جدران حياتهم اليومية المتضايقة، فلا يستحقون إلا أن يكونوا حصبا لجهنم ما لم يتوبوا إلى الله.

سيقف الحسن الثاني، ومحمد السادس أيضا، أمام الملك الديان الذي سيسألهما عن السور المضروب بين شعب مستضعف وحفنة من الانتهازيين المتملقين : من الذي بناه؟ ومن الذي رعاه؟

الكل يعلم ... باستثناء الشعب الأمي الذي أذهلته لقمة العيش عما يدور في بلده. ما فتئت الصحف والمنشورات الأجنبية تعرض عمليات النهب الممنهج التي تقوم بها السلطات المغربية للثروات المغربية. من يجهل من المثقفين المطالعين للصحافة الأجنبية أن الأونا (O.N.A) - هذا الأخطبوط الممتدة أذرعه الذي كان الملك الراحل (المفتقر إلى رحمة ربه أكثر من أي وقت مضى) يمسك بخظامه- تمثل قسطا هاما من الثروة الحسنية. استندت هذه المؤسسة على الامتيازات التي منحها لها الملك السابق لتحكرك الأسواق وتستحوذ عليها. و بهذا أصبحت هذه الإمبراطورية الاستعمارية تينا برؤوس متعددة تضخ -ولا تزال- أرباحا خيالية في الأرصدة القارونية للجلالة الراقدة اليوم تحت التراب.

كان المغرب بأكمله ملكا للوحش المقدس "أونا"، أي للملك. واليوم تنتقل هذه الثروات المكدسة طيلة أربعة عقود إلى الورثة الذين سيضيق عليهم الخناق يوم أن

يسأم الشعب المستنزف من الهمس ويحطم جدار الصمت مطالباً الأحياء بحسابات الأموات. ويومها سيكون محمد السادس على رأس المطلوبين طبعاً.

كانت أونا ولا تزال تهيمن على اقتصاد البلاد باعتبارها رأس حرية الممتلكات الحسنية المقدرة بملايير الدولارات. وكان الملك الراحل -غفر الله له- يفتخر بأنه فلاح ينتمي لأسرة الفلاحين. استهزاءً بالألقاب أم تحكم صريح؟!

لم يفلت أي قطاع من قبضة الجشع الملكي زراعاً كان أو صناعة غذائية أو سياحة (كانت الفنادق الفخمة جدا التي تستقبل ضيوف "صديقنا الملك" ضمن الحصيصة "الهزيلة" لممتلكات فلاحنا المسكين) أو أبناكا أو تأميناً أو مصانع سكر أو نفطاً أو هندسة مالية أو مقاولات عمومية أو شركات منجمية أو صيداً بحرياً أو صناعة كيماوية أو طباعة أو نقلاً أو نسيجا... والقائمة تستعصي على الحصر. لقد أصبحت "أونا" مجتمعا مالياً يستفيد من امتيازات هائلة.

كانت الأرباح الخيالية (المحلية طبعاً لأن الجزء الأهم من المداخيل والأموال الملكية اتخذت الغرب لها مستقراً ومستودعاً) التي يحصل عليها الملك تجتهد في الاستتار عن أعين الأهالي الفضولية. وحين استبد جنون العظمة بالفلاح المسكين فتاق إلى بناء واحد من أضخم وأفخم المساجد في العالم، سلط زبانيته على الفلاحين الفقراء الحقيقيين يسلبونهم دراهمهم المكدودة. وهكذا تشتغل الآلة المخزنية الغاشمة العتيقة في وضوح النهار، بينما يذر النظام "العصري" الرمد على العيون حين لا يفتأ يتحدث عن الديمقراطية والدستور...

الحدائق الشيطانية

كان للملك الراحل رحمه الله حسب تعبيره "حديثته السرية" التي كان له الحق وحده في زراعتها. كانت له مقابر خاصة يدفن فيها "النباتات الفاسدة" من رعيته. كانت له مستودعات للموت يدفن فيها حياكل من نجا من محاولات الاغتيال أو أفلت من أحكام الإعدام.

حدائق الموت المخزية كانت تستتر خلف الابتسامة اللطيفة المعروضة على الجمهور. وتمتد لائحة المنجزات اللصيقة بكل ذي طبع شحيح: فالحسابات الملكية

في الأبنك الأجنبية مفتوحة بأرقام سرية أو أسماء مستعارة. والاستثمارات الأجنبية بالخارج لا حصر لها، بحيث لا يقدر صاحبها نفسه على التحكم فيها، بل إنه لا يدري كم عدد المقاولات والقصور والأسهم - سواء كانت في الزراعة أو البورصة أو العقار - التي يملكها. هل ما نقوله اتهامات افتراضية مغرضة من صحافة أجنبية أو أنه عين الحقيقة التي يجري التكتم عليها؟

يذهل العقل أمام هذه الأرقام المكدسة، لكن إذا عرف السبب بطل العجب. ففي سنة 1994 نشر المرصد الجغرافي للمخدرات تقريرا سريرا اتهم فيه بصفة مباشرة بعض المقربين - بل الخلاء - من الملك الراحل، وأشار إلى أنه أول راع لهذه التجارة ومستفيد منها.

كيف نعلم؟ كيف نتحقق؟ لم الحديث عن هذه الأمور الآن؟

لا يزال ستار التعقيم مسدلا على القضايا المشبوهة في هذا البلد الذي يُعَلَّق منافذه، ولا يفتأ يحتج على نشر بضع نتف من الحقيقة في الخارج، مؤكداً أن الديمقراطية الحسنية هي المثال الذي يجب أن يُتخذى. ظلت اليد الحديدية تختنق أنفاس البلد إلى أن اضطر الذين استماتوا في إنكار وجود "تزممارت" إلى الاعتراف بالواقع بعد أن توالى شهادات نزلائه السابقين على بشاعة الأسرار المدفونة في "الحديقة السرية للملك".

يقف الماضي حائلا بين المزاغم والوقائع، بين الكذب والحقيقة، مثلما يحول الماضي الاجتماعي بين المغرب الفقير والنخبة الفاحشة الثراء التي أغدق عليها الملك الراحل رحمه الله الامتيازات هو وبطانته الفاسدة المفسدة.

يقف الاقتصاد المنكوب شاهدا، وتقف القصور الملكية التي أجلى عنها الملك الشاب بكل شجاعة قطيعا من الخدم كانوا دائما على أهبة الاستعداد لاستقبال الملك الراحل، متوحسين خيفة دائما من أن يطردهم سيد بطاش بالمستضعفين، كريمة مضياف مع زواره المتألقين.

عزيزي القارئ، أخي وأختي! يا من تقرأون كلماتي! لا تحسبوا أن حدة ألفاظي وشدة خطابي نابعتان من مرارة طالما كتبتها في العهد الغابر، بل هي الحسرة على الإسلام المكلوم والحق المهضوم وبلدي المخدوع ترفع من حدة قلبي!

يشهد الله جل جلاله أنني لست حاقدا على الراحل، بل إنني أتمنى له الخلاص الأبدي في الدار الآخرة. لكن للأحياء الذين طال امتهانهم وخداعهم وكبت أنفاسهم الحق في كشف الغطاء عن الغموض الذي يكتنف البلاد حتى لا ينزلق القطار، ولكي تكون عبرة الماضي منا را يقود سيرنا نحو المستقبل.

فلنخاطب ولي العهد -الذي أصبح فجأة ملكا بعد رحيل أبيه العبد المذنب- خطاب الحكمة والعبرة، لنحدثه عن الأمس والغد، عن الخلود بعد الموت، لننظر هل له من الهمة ما يؤهله لأن يكون بانيا لعهد جديد. أم أنه مجرد ابن لأبيه؟ ظلّ عابر للتاريخ؟ شخصية انتقالية؟

"جنازة رجل!"

كان يحلو للحسن الثاني رحمه الله أن يحدث بعض زواره عن أول درس تلقنه مباشرة بعد وفاة والده محمد الخامس رحمه الله. فخلال جنازة محمد الخامس، وضع نعشه أمام الحاضرين ونادى المنادي: "الصلاة على الجنازة، جنازة رجل!" "رجل"، رجل مجرد من كل تنويه، أو تشريف، أي أن رفات ملك ليس في نهاية المطاف بالنسبة للأحياء المبهوتين أمام هذا "الرجل" سوى منبه لهم عما ينتظرهم: الموت والرحيل من دار الدنيا لدار الأخرى.

فهل توقف الحسن الثاني -الذي أذهله المشهد الرهيب لرجل بطل تربع على قلوب المغاربة حيا- عن الاعتبار بعد أن وارى جثمان أبيه التراب؟ هل نسي الدرس والإنذار؟ لم الإعراض عما هو آت لا محالة، والتسلي عن النهاية الحتمية التي تنتظرنا؟ سوف نعبّر السبيل بسرعة، ليكون الكفن والدفن بعد ذلك.

وجد الكفار حلا للذعر الذي ينتابهم حين يفكرون في الموت، فقبلوا أن يكونوا في نظر أنفسهم مجرد حيوانات لا معنى لها آيلة إلى عدم بعد وجود. الموت عند هؤلاء و عند من ينظر بمراثم هي المأساة العظمى التي يجب نسيانها حتى يتمكنوا من الاستمرار في الحياة، من التمتع بالملذات التي تهديها لهم الحياة، من الانهماك في التهام "الأغذية الأرضية" للحياة، من الانغماس في ملاهي الحياة، من التعاطي للمخدرات المادية والمعنوية لنسيان عشية الحياة، من البقاء أحياء في ذاكرة الناس عبر إنجاز فني أو

مشاريع ضخمة، من ترك إرث ضخمة للأبناء، أو اكتشاف علمي للبشرية، أو عمران أو مؤسسة خيرية للمدينة.

أو أنهم يطردون بكل بساطة فكرة الموت والصور الفظيعة للحث المتعفنة بعد الموت.

أما المسلمون المؤمنون بالله عز وجل وبرسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فيعتبرون ذكر الموت فكرة تسكن دقائق عمرهم، إذ لا بد أن تصاحبنا صورة "الرجل" الذي سنكونه اليوم أو غدا. يذكر المؤمنون الموت عند الاستيقاظ و عند النوم، وخاصة في صلواتنا ومواعظنا. وذلك حتى تظل حقائق ما بعد الموت حاضرة في أذهاننا، حقائق البعث والحساب عما اقترفته أيدينا، والحكم الذي سيصدره الحكم العدل سبحانه، ثم الجنة التي سيخلد فيها السعداء والهاوية التي سيلقى فيها الأشقياء.

ياحسرةً على الإنسان الحديث، المثقف أو المتشاقف! لا يرى فيمن يحدثه عن الموت سوى مخرف مختل أو عُصايب أو مجنون مآله مستشفى الأمراض العقلية.

يا للحسن الثاني المسكين! كان يخلو له أن يحدث بعض ضيفه عن الدرس الكبير الذي تلقاه أمام جثمان أبيه رحمه الله. ثم يجتهد بعد ذلك في نسيانه.

مساكين نحن الذين نزعم في المحافل و على صفحات الجرائد أننا "جميعا مسلمون"! متكبون عن الإيمان نحن، لاهون عن الإيمان، جاحدون به، خائنون له، أعداء لأنفسنا، كأننا خالدون في هذه الدنيا!

مسكين يا حسن! تأثرت بمشهد أبيك -عفا الله عنكما- الذي أصبح مجرد "رجل" تصلى عليه صلاة الجنازة، ثم سرعان ما نسيت، بدل أن تتصرف كرجل يهتم بمصيره بعد الموت. عَبَّتْ من الكأس الذي تقدمه الحياة الخداعة لأمثالك : شباب وغنى، صحة وشهرة... استسلم الحسن رحمه الله وعفا عنه لكل المغريات، متفننا في مراودتها. كانت "حرفته الملكية" - كما كان يخلو له أن يصف وضعه- تضع رهن إشارته كل الوسائل، وتمكنه من انتهاز كل الفرص للظهور بمظهر الملك العظيم، والتلذذ بأصناف الملهيات المسكرات التي تهديها له الحياة.

موعظة وعبرة

يا أيتها النفس البريئة! ويا أيها الملك الوارث للملك! يا أيها الرجل الذي ستصلى عليه صلاة الجنائز طال العمر أم قصر!

لو كان الحسن الثاني مجرد فرد من الأفراد، مجرد واحد من أبناء الشعب لَعَطَفْنَا عليه -نحن المذنبين المقصرين الواقفين على باب الله- ولضربنا عنه صفحا، لكنه كان ملكا. كان!!! وتلك هي العبرة التي على ابنه محمد السادس أن يستخلصها من مشهد "الرجل حسن" الذي حمل نعشه هو شخصيا إلى مثواه الأخير، عليه أن لا يدع هذه العظة تحبو في ذاكرته. فهو اليوم ملك، وهو غدا "الرجل" المسحى لا محالة.

إن الحسن الثاني نفسه، هذا الذي رفع الشعار الثالوثي : الله، الوطن، الملك، قد أصبح من بعد شيئا لا حول له و لا قوة، مكفنا داخل تابوت مذهب ... وما قيمة التابوت المذهب أمام حقيقة الموت!

ومشى العاهل الشاب في موكب المتأله "المعصوم"، وشهد الحفل الوثني المنظم كل سنة، والذي تقام فيه شعيرة البيعة المخزنية التي تلزم كبار الشخصيات في البلد بالركوع خمس مرات أمام الصنم البشري قبل أن يدفعهم الخدم المطرّيشون، ويسارعوا إلى رص صفوف باقي العباد الخاشعين.

كيف نريد بعد هذا من هؤلاء الوجهاء المرؤّضين كل سنة على الركوع للوشن، المبتهج بأن أصبح مركزا للكون، أن تبقى لهم ذرة من كرامة؟ لاشك أن هذه الكراكيز الجليلة المعجمة تحس بحقارتها حين تتقمص جلد الخادم الجاثم عند قدمي سيده.

لطالما شهد الملك الشاب الدروس الرمضانية والحفلات المقامة في ضريح جده. تجمعات ضخمة ترصد لها ميزانيات خيالية مما تدره الأوقاف. ويا للأوقاف! خلّف الأجداد للأحفاد ما به ينفقون على شعائر المسلمين ويسدون حاجة المحتاجين منهم. أي خيانة هذه لمخزن لم يكتف بتحويل تركة الموتى إلى جيوبه بل أنفقها على حفلاته الوثنية!

لا بد أن يختار الملك الشاب بين طريقتين : إما أن يُخلص لعرق عظمى عليه الزمن فيتبع خطوات أسلافه حدوك القذة بالقذة وبئست السبيل هي! وإما أن يعقد العزم على اقتحام العقبة والتكفير عن الجرائم التي كان أحد شهودها.

إذا اختار الملك الشاب أن يبقى التقليد الموروث وصيا عليه متوجسا من حرق "ما جرت به العادة" وتجاوز "القاعدة"، فسنعلم أن لا أمل للبلاد في الخروج من مأزقها، وأن الدعوة إلى احترام التعاليم الإسلامية، التي كان يعلنها الحسن الثاني رحمه الله وعفا عنه والتي سيعلنها سلفه السالك سبيله، ليست سوى تمويه مفضوح.

أما إذا صحا قلب محمد الآتب إلى الله، الموقن بما ينتظره، المستعد للقاء ربه، فلا بد أن يجتهد في تفكيك "إمبراطورية الشر". لقد كسب الملك الشاب في بداية هذا الشهر -نوفمبر- 1999 الجولة الأولى في معركته مع هذه الإمبراطورية حين طرد الوزير المنفذ لكل جرائم الحسن، وكيهله في عملياته الخسيسة.

تفاوض كبير و تحديات أكبر

إنها، لعمري، ضربة هددت البناء المخزني الهاري، ضربة تبعث على التفاؤل، والملك مدعو ليكمل عملية التطهير ويكسب الساحة من الأناقض حتى يتسنى له إقامة بنيان جديد بدل ذلك الذي نخره السوس. فانتهاك الحرمات والدوس على الكرامات لا يمكن أن يُحميا من ذاكرة المغاربة إذا لم تستأصل شأفة الشجرة الملعونة.

جُرِّدت الدعامة الأساسية للمخزن من وظائفها، اليد اليمنى للحسن الثاني، أمين سره ومستودع ثقته. لعلها كانت خطوة مقتحمة خاطفة، ومنعطف حاسم!

منعطف نحو ماذا؟

لم يكن الوزير الذي كان يسخره الحسن الثاني سوى شخص مسكين، منفذ، كبش فداء تُصَوَّبُ إليه سهام بدل تصويبها للملك. فماذا عسى يحدث تغيير أداة إذا كان يراد للجهاز المعتل أن يستمر؟ هل يمكن لمن باعوا أنفسهم للشيطان أن يرفعوا عن غيهم مجرد التضحية بواحد منهم؟

يتحدث الملك الشاب في خطاباته عن "مفهوم جديد للسلطة"، ويقدم الدليل على استعداده لتطبيق هذا المفهوم. فبعد الإشارات المتتالية، كانت الضربة الكبرى التي أهلتها لاجتياز اختبار الصدقية بنجاح.

فهل ينوي حقا القطيعة مع الماضي؟ وهل يستطيع؟ إنها من دون شك ثورة صغرى، فمتى موعد الكبرى؟

أي مستقبل لمحمد السادس، وأي مستقبل للمغرب؟

لا مستقبل لهما إذا لم يقيما الأساس على أرض الإيمان التي لا تتزعزع. فلقد كان الإبعاد المهين للشخص الممقوت في أعين الشعب خطوة سياسية كبيرة، لكن من يسد ثغرات تناوب هش، ومن يملأ فراغ المشهد السياسي الناتج عن إزاحة آجرة من البناء المخزني؟

يمكنكم أن "تسايسوا" وتعثروا على وجوه ذات أقنعة إنسانية، لكن كيف السبيل إلى ملء الفراغ الخلقى الذي لم يكن الوزير الكريه سوى مظهر له؟ من للخواء الروحي المتحسد في الحفلات التي كان الحسن الخطاء يقيمها؟ من للاقتصاد ولمال الأموات والأحياء الذي كان الوزير المنبوذ يشارك بنشاط في انتهابه؟

لا أمل لمحمد بن الحسن ولا للمغرب محمد مادام الإثنين يجبطان في ليل الارتجال، ولا مخرج للجهاز المخزني من المتاهة التي يدور فيها مهما بلغت جرأة الملك الشاب، ومهما تعددت إنجازاته المقتحمة، ومهما عظمت الآمال التي يجسدها في أعين الشعب المعبر عن ارتياحه. فمادام مشروع المجتمع المحدد بوضوح، المعبئ للشعب، كل الشعب، غائبا فلا أمل في الإفلات من طوفان يوشك أن يجل!

القطيعة المرجوة

حقا ستتوارى ظلال مراكز القوة - من أمثال أوفقير والدليمي - من الساحة ليحل محلها جلاوزة يخدمون العرش كما خدمه الوزير الطريد، سيظل السوس ينخر في جسم النظام، وبعد الضربة المفاجئة، ستتوالى الانتكاسات وحييات الأمل.

لا مخرج ما بقي ذوو النزعات الخسيسة لا يستمعون لصوت آخر غير صوت أنانيتهم الضحلة و"عبقرياتهم" المهووسة، ولا يتعالون عن البلادة البشرية، والظلم البشري، والفسق البشري، والوحشية البشرية التي يتفنن في تجسيدها الجلادون.

لا أمل للملك الحكم المطلق في الانعتاق من قبضة الشيطان، وللشعوب المسخرة لها الغارقة في مستنقعات البؤس المادي والثقافي والسياسي والخلقي إلا بالتمسك بالجيل الممدود من السماء، جبل الله الذي له ما في السماوات و ما في الأرض.

مستنقعتنا المغربي أسنّ ماؤه وفاحت رائحة عطنه، فلا نطمع في أن تنجح "إشارات" صغيرة هنا وهناك في تخفيف مائه الراكد وتفريغ وحله العفن.

يالها من مهمة تلك التي تقتضي التشمير لتنحية القاذورات! ما أنبل أن ينذر المرء حياته لتطهير البيئة من النفايات وتهميئ الأرضية للبناء! سيدعم الشعب عملية التطهير وإعادة البناء إذا ما دُعِيَ إلى ذلك بعد أن يثق بالداعي. فالطاقات متوفرة، والكفاءات مستعدة، لكن تعبتها واستثمارها يتطلب الاعتراف بالقصور والاعتذار عن تاريخ المقصرين حتى يتحفز الجيل النظيف ويفتح عينيه على ما حدث وما يحدث. لا بد أن تنسحب مع عملاء الظلام سنّة التعتيم والتضليل السيئة.

كان العهد الزاهر "للحسن الباني" عبارة عن سلسلة من التنازلات السياسية والثقافية للأجنبي المتواطئ مع حكم مطلق ينيخ بكلكله على صدر الشعب.

يعلم محمد السادس قبل أي شخص آخر - وهو الذي طالما قاسى من والده الأمرين - كيف كان الملك الراحل يعامل المغاربة - المقربين منهم والمسخّرين - وكيف كان يخاطبهم "بلطف ولباقة" عز لهما النظير. أما الأجانب فكانت لهم عنده الخطوة التامة.

كانت مصادقته بل تواطؤه مع مسانديه من الأجانب سرا شائعا يعرفه الخاص والعام. من الذي لم يسمع بتواؤده مع الصهيونية العالمية واهتمامه الكبير بها؟ ألم يشهد الشعب المغربي، مبهوتا، حفل استقباله للحاخامات الداعين "لأمير المؤمنين" بطول العمر المبتهلين إلى "يهوه" أن يحفظ عرشه؟

لقد كشفت الصحافة الأمريكية كيف كانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تسهر - بتعاون مع الموساد الصهيوني - على سلامة الملك الراحل، وكيف كان

أصدقائه اليهود عقيدة، الصهاينة إيدولوجية، يحظون بحذبه وحفاوته. لم تسئل الدولة الصهيونية أحد أهم أولياء نعمتها، فسمت بعد رحيله 70 شارعا ومرا في إسرائيل باسم الحسن، كما شاركت الحكومة الصهيونية والمنظمات الصهيونية التي يتزعمها يهود ذوو أصل مغربي في الاحتفالات الإسرائيلية المخدلة لذكرى "الصديق المخلص". تفانى الصديق البارز لليهود الصهاينة في إرضائهم، وبذل كل الجهود لخدمتهم، فانطلقت ألسنة السوء تصف النظام الحسني بأنه حكم يهودي. فهل هي مجرد مبالغة؟ من هذه الغيابات المظلمة، من هذا التيه، يجب أن يعتق محمد السادس بترئيه الصادق الواضح من حماقات والده المهينة للدين والخلق، ومن أخطاء شبابه هو، ومن الخطايا القاتلة التي لن يمحوها إلا توبة صادقة إلى الله.

وإن مجافاة هذه السياسة المقبولة التي تقوم على خيانة الشعب الفلسطيني الذي تجمعنا به الأخوة الإسلامية لن تكون مهمة سهلة. ما زال "معارف" الأب الراحل يصدون عن ذكراه كل هجمة ويجمونه من كل انتقاد. فحين أعلن مثلا المرصد الدولي للثروات الدولية أن الحسن كان من أغنى الرجال في العالم، سارعت الأيدي الخفية إلى طمس النبأ وحذفه من عناوين الأخبار. ولا عجب، فنحن نعلم من بمسك بأعنة الآلة الإعلامية في أمريكا، بل في العالم أجمع.

تغيير عميق

خلف الملك الراحل، عفا الله عنه، ثروة خيالية، تركة مسمومة لمحمد السادس وإخوته. فهل يستجيب الورثة المسلمون، حفدة النبي صلى الله عليه وسلم لداعي الحرص فيتمسك كل واحد منهم بحصته من الغنيمة التي نعرف كيف تم تجميعها؟

هل سيسائل الملك الشاب والأمراء والأميرات، هل يستطيعون مساءلة ضميرهم عن الهوة الهائلة القائمة بين شعب غارق في أحوال البؤس الأسود وبين ورثة تحاطلت عليهم فجأة سيول من ذهب وفضة.

هل يمكن للخاطرة البريئة، خاطرة مقارنة وضعهم بوضع غيرهم، أن تتسلل إلى دهاليز النفسية المترعة في الديقاج المترعة بين أسوار القفص الذهبي؟

هل يتواضع ضمير الأمراء المصنوعين على عين التربية الغربية فيلقي يوما ما نظرة على وضع الأغلبية الضاربة جذورها في تربة الحرمان والأمية واليأس؟

يبدو أن العاهل الشاب ينتمي إلى هذه الطينة التي يأرق جفنها لتعاسة الفقراء، بدليل انحنائه المؤثر المتأثر على الصغير المعاق ليقبله، وعطفه على المحرومين المصطفين أمام بيته المغمورين بعطائه ورعايته...

أمارات تحفز الأمل في قلوبنا! هل يستطيع الملك الشاب، الملك الطيب الجواد، أن يتوغل في هذا الطريق المضيء؟ هل هو مقتنع به؟ هل يقدر على إقناع نفسه بأن الوضع خطير، وبأن حاجة الأغلبية الصامتة لا يمكن أن يلببها إلا تغيير جذري يستأصل شأفة التهميش الاجتماعي، والفقر المدقع، والركود الاقتصادي؟

الوضعية المهينة للمرأة، الاستغلال البشع للأطفال، الشباب العاطل المخدر الذي يزرع الرعب في الأزقة والحارات، كلها جروح اجتماعية دامية تشهد على بؤس المغرب الفقير. والشيبية الغارقة في وحل الجريمة هي الوجه الآخر للشيبية المستبشرة الهاتفة خلال المركب الملكي.

لصياغة معادلة الوضع المخزني، واستشراف المستقبل بجدية، لا بد من الاستناد إلى معطين اثنين :

- أولهما أن الدّين الخارجي الضخم يجثم على ميزانية البلد، ويشل كل محاولة تصحيحية جادة، يُسند في ذلك الغش الإداري والبطء البيروقراطي والفساد المالي... عاهة مغرب حكام الجبر ولعنة مغرب المستضعفين!
- وثانيها أن الملك الشاب والأمراء والأميرات شركاء في تركة الرجل الهالك، لكل منهم نصيب من الثروة القارونية التي خلفها.

فلنقرن المعطين حتى تتبدى لنا بدهية الحل الجذري لمشكل الفقر الذي يقض مضجع المغاربة : أن تخصص هذه الثروة الهائلة لتسديد هذا الدّين الثقيل ومحو كابوسه الرهيب. بذلك يرتقي الملك الجديد إلى مقام الأبطال. حينئذ يكون له موعد مع المجد لن يُخْلَفَهُ!

اقترح تبسيطي ساذج؟ أم هو الهوس والجنون؟

هل للملك الشاب ذي القلب الرحيم همة الأبطال المرادين للمحال؟ هل يملك من الخيال "الساذج" ما يؤهله للتعالى عن منطق الانخزام والاستسلام، ليفكر في سياسة أخرى مغايرة يعمل ما في وسعه لتطبيقها.

منذ ما يربو على أكثر من ربع قرن من الآن، كنت اقترحت على الملك الراحل مثال رجل صالح، نجمة مضيئة في سماء التاريخ الإسلامي. إنه الرجل الذي تحدى منطق زمانه وعقلية زمانه وحزبه لكي يراجع النظام الذي ورثه، والأفكار والتقاليد التي كان قد تلقاها من سلالته وذويه. فعل ذلك فرسم لأحداث عصره مساراً جديداً.

عمر بن عبد العزيز منار نستهدي به في تاريخ ما بعد الخلافة الراشدة. نُصّب ملكاً بعد وفاة ابن عمه سليمان بن عبد الملك، فبان للنظرين معدنه النقي حين استهل عهده برد مال الأمة إلى الأمة، وأمر الأسرة الملكية بإرجاع أملاكها إلى بيت مال المسلمين، ابتداءً من زوجته التي سارعت - بعد أن بجرها مارأت من ورع زوجها وحزمه - إلى وضع كل حليها عند قدميه.

إنه المثال الذي تقدمت به يوماً ما بين يدي الملك الراحل "بسذاجة" فطرية، والذي أقترحه اليوم دون كثير تفاؤل - أعترف بذلك - على ابنٍ فان يوماً ما لا محالة لأب قضى نحبه.

لكن مثال عمر بن عبد العزيز رغم شهرته ليس فريداً في تاريخنا الحافل برجال عظام طبعوه بقوة، من أمثال يوسف بن تاشفين.

ما أيسر أن نحلل هذا الاقتراح ونوصفه! لكن محك الواقع يوشك أن يعري عن جسامته المهمة، إلا إذا... إلا إذا رنا محمد السادس يبصره إلى العلياء وودشن العهد الجديد بتحرير البلاد من القبضة التي تخنق الحاضر وتحول الأمل في التقدم الحثيث إلى أضغاث أحلام.

هذا المشروع العظيم، مشروع رد مال الأمة للأمة، إذا ما حدث أن نما في الضمير الملكي ورفع الساعدُ الفتى لواءه ونافع عنه، سيمكن الملك الشاب المبتدئ

المحاط بالأفاعي الحربائية من الارتقاء إلى مصاف الأبطال المنقذين، الداخلين إلى التاريخ من أوسع أبوابه، الداخلين على الله عز وجل من باب الرضى والرضوان.

ولنعلم أن أجل النظام المخزني الحسني لم يكن بعد، مادامت فيروسات التعفن الإداري تعمل فيه ليلا ونهارا، ومادام الإدمان على الارتشاء والانتهاك ديدن الموظف المخزني السامي مثلما هو هواية نظيره في أسفل السلم السلطوي. لذا سيستमित هؤلاء وأولئك في الدفاع عن امتيازاتهم وسيحيكون المؤامرة تلو المؤامرة.

لكن بالإمكان تطهير الإدارة الفاسدة، وبعث الحياة في أوصال جهاز هرم، وإنشاء نظام للتضامن الاجتماعي يقوم على التنمية والتشغيل بدل الاقتصار على الصدقة العمومية والخصوصية. ذلك إن وقي محمد بشرطه.

وبعد أن يخطو الملك الخطوة البطولية الحاسمة، سيكون له الحق في أن يدعو الجميع إلى التضحية وتحمل المسؤولية والاستقامة والتفاني في سبيل إعادة بناء مغرب جديد، مغرب ظل حلما يراود المغاربة دهورا طويلة.

عقبات

هل هي هلوسة وتخريف؟

كلا! بل هو حل يمليه العقل المتعقل، حل صعب للغاية ولاشك! فالعالم الذي نعيش فيه ليس مدينة فاضلة تنتفي فيها الضغوط والمقاومات.

ففي الخارج، ستتوجس الهيآت المالية الكبرى وشركات الإيداع من مشروع سيهدد مصالحها بتحويل مبالغ لأرصدة هائلة، ولن تلبث أن تقاوم.

لا غرابة في ذلك، فالإنسان مجبول على التمسك بما يملك من متاع الدنيا.

ليس استرداد الثروة المودعة في ديار الغرب مجرد حل سياسي متميز، بل هي قبل ذلك واجب ديني يملئ على الوارث الشاب أن يعيد للشعب ما انتهبه "أب العائلة المغربية" الراحل وكدهس. لا بد أن يعزم الملك الشاب ذو القلب الطيب والمبادرة الحيوية، على التفكير جديا في حل جذري لمسألة هذه التركة الثقيلة، وإلا غاص المغرب في مستنقع الركود والتخلف أكثر مما مضى.

وستبدو وجاهة هذا الاقتراح الجريء للعيان، سيكتشف الذين لا يرون فيه سوى تحريف محموم أو هذيان مهووس أو مؤشر على جنون حالم أنه عين الحكمة.

أليس من العيب أن تُملأ الدنيا تطبيلا و تزميرا لمؤسسة الحسن الثاني التي ما احتمرت فكرة تأسيسها إلا في رأس مجبول أو ذهن منافق مكار؟ أليس من المضحك المبكي أن نقرن اسم رجل يعرف الخاص والعام أنه من بين أكبر قوارين هذا الزمان بتدبير المليار اليتيم ثمن الرخصة الثانية للهاتف النقال؟

ألسنا نغتاب هنا رجلا رحل فانطلقت السنة السوء تنسب إليه ثروات وهمية؟ أم هو لفظ إعلامي يلهث خلف الإشاعة سعيا نحو الإثارة؟ فلنعلنها إذن على رؤوس الأشهاد أن الأمر كذب في كذب! ولنصاح الشعب بالرقم الدقيق أو التقريبي... لِمَبْلَغِ الأُملاك المنهوبة!

المفاهيم الجديدة

بما أن "أب الأمة" الشاب بمسك الآن بمفتاح التغيير الحقيقي، وبما أنه يقترح مفهوما جديدا للسلطة، فلتكن خطواته موافقة لمفهوم جديد للعدالة وللتوزيع العادل، توزيع الخيرات على جميع أفراد الأسرة المغربية.

لا مناص له من الالتزام بتصوير جديد للاقتصاد والتنمية إذا كان حقا يريد إخراج البلاد من النفق الضيق. فالتعادل الحاصل بين ممتلكات ملك المغرب والدَّين الخارجي للمغرب فضيحة أركمت رائحتها الأنوف. أصبح الدَّين الخارجي يمتص الآن -بعد تقليص النفقات الناتج عن تطبيق التقويم الهيكلي- حوالي 36% من الناتج الخام للمغرب. وهي النسبة نفسها التي تمكن الاقتصاد المغربي -إذا ما بلغها معدل الادخار الوطني- من الإفلاع بسلام. وتلك معادلة لا يدرك أبعادها المحاسبون الواقعيون المنكبون على أعدادهم الصغيرة، و إنما يدرك ذلك المغاوير المقتحمون.

فعل واحد، فعل تاريخي حاسم إذا ما قام به الملك الشاب سيكون كفيلا بتحرير رقبة المغرب من غُلِّ البنك الدولي، وحمائته من إرهاب هذه المؤسسة الكاسرة التي أرغمته على الخضوع للتقليصات الوحشية رديفة سياسة التقويم الهيكلي وقصمت ظهره بتكلفتها الاجتماعية.

أمام الخراب الاجتماعي الناتج عن استحكام قبضة البنك الدولي على الاقتصاديات المثقلة بالدين، نحاول أن نخفف من وطأته على الطبقات الفقيرة فتحدث مرة عن المقاومة الوطنية، وندعو مرة، بل مرات، إلى حملات التضامن الاجتماعي...!

فهل تتجاوز يد محمد السادس الممتدة إلى الفقراء تُضمّد جراحهم مرحلة الصدقة المنظمة؟

هل يتحول الملك يوما ما إلى ملك مواطن؟ نعم، إنه يسوق سيارته بنفسه ويتوقف عند الضوء الأحمر. شيء جميل لكن هل يكون ذلك كفيلا يجعل السلم الاجتماعية يسود في أنحاء البلاد.

سيكون لتصفية ملف الدين بالثروة الملكية إيجابيات يعجز اللسان عن عدها. فالاستثمار سينطلق بعد توقف، والمال المخصص اليوم لتسديد أقساط الديون سيحوّل نحو الاستثمار العمومي، والتعليم والتربية اللذان نكّصا بالبلد إلى المرتبة 125 بين بلدان العالم سيطفوان إلى السطح. ستتحسن البنية التحتية المنهارة أو المنعدمة في المناطق القروية، وسيفك الحصار الاجتماعي والجغرافي المضروب على المناطق المحرومة ليتراجع مد الفقر الجائع. ستُحفّف مستنقعات البطالة بعد أن تُستعمل مضخات أكثر فاعلية من تلك التي تُشغّل ألفا من العمال هنا أو مائة من الدكاترة والمهندسين هناك.

وبعد الضربة الحاسمة، يستطيع العاهل أن يهجم -مسلحا بالسلطة الأدبية اللازمة والوزن الخلقي المتميز- على الرشوة والفساد اللذين يَبِث فيروسهما الإعلام المغربي. فلا انطلاقة بدون تخليق للسياسة والإدارة واجتماع. ولا تخليق للرعية ما لم يتخلق الراعي، ولا فعل هناك يستحق الذكر في صحف التاريخ ما لم يكن فعلا أخلاقيا!

حينئذ يمكننا أن نفكر -متسلحين بالوسائل الاقتصادية والمالية- في الخلاص العام والولوج إلى عهد جديد... عهد الشفافية والديمقراطية الحق...

الديمقراطية؟!

نظقت بالكلمة السحرية! بالكلمة التعويذة، بالكلمة المفتاح لكل المغاليق!

لا مجال هنا لمناقشة مبادئ الديمقراطية الحق والتقدم الذي يمكن أن ينتج عن حلها ببلادنا. فالقاعدة الديمقراطية المتمثلة باختصار في حق الشعب في اختيار حاكمه بكل حرية هي المخرج الوحيد لنا من ظلمة الحكم المطلق. ولا مجال هنا لمحاكمة ديمقراطية نُخرتها العلل في عقر دارها.

حين أتحدث عن القاعدة الديمقراطية فإنني أميز بين المسطرة والتنظيم، وبين رديفة الديمقراطية الحديثة وخليتها: اللاتكفية وتجاهل القيم الروحية والخلقية؛ فإذا ما أخذنا بالقاعدة والمسطرة، كان لنا الحق كل الحق في نبد كل ما يبعدنا عن علة وجودنا وغايته: إسلامنا.

لقد طال تهميشنا من الساحة السياسية. فلنا الحق إذن في التحفظ على إمكانية أن يكفر الملك الشاب عما سلف في حقنا، لكننا انسجاما مع حكمة الإسلام التي تقبل التدرج في التوبة والإنابة لا نستعجل.

وانسجاما دائما مع هذه الحكمة الإسلامية، سنظل ثابتين على مبدأ الاقتراح الرصين من موقع "القوة الهادئة" التي تقترح وتدعو. فلينظر العالم هل الريان الذي يقود السفينة - بعد طرده للقراصنة - هو حقا مستقيم ومتبصر، ولنبرهن للشعب المكذوب المكولم بأفعال رجولية حاسمة على أن عهد الحكم المتحجر قد ولى إلى غير رجعة، وأن نسمة الأمل التي هبت على الشبيبة من قلب الملك الشاب ليست مقدمة لريح صرصر عاتية، ليوقن هذا الشعب أن ورثة الثروة القارونية لن يذهب بأبصارهم وميض الذهب المنهوب!

لن تسد الثروة الموروثة خرق الدّين الخارجي الواسع فقط، بل يمكنها أن تليج الحاجيات الملحة للمغاربة. وليعلم الملك والأمراء والأميرات أنني حين أقترح عليهم التوبة وإرجاع مال الشعب إلى الشعب لا أطلبهم بإخلاء فيلاتهم ومسكنة المغاربة المحرومين في دورهم الصفيحية البئيسة. فالملك، ممثل الدولة، لا بد أن يتوفر على الوسائل المادية المناسبة لمركزه. وللأمراء والأميرات - بعد أن يظهروا تضامنهم المشروع مع النموذج المقترح - الحق في امتنان الشعب لهم، بل سيكونون حينئذ من الفائزين برضى الله عز وجل.

فليقرأ الملك - حفيد النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمن بربه - وليعمل على إلقاء ذويه كتاب الله عز وجل و سنة نبيه صلى الله عليه وسلم. فأيات القرآن و تعاليم السنة النبوية تفصل جزاء الحائفين الجائرين و تلعن الظلم و الظالمين. ستكون قراءة "كتاب المظالم" من صحيح البخاري في هذا الشأن موعظة منيرة للجميع.

أتمنى للملك الشاب من العزم والشجاعة ما يمكنه من اقتحام هذه العقبة الكؤود وأذكره مرة أخرى مودعا :

كفر عن مظالم أبيك المسكين وخفف عنه الحساب العسير! رُدَّ إلى شعبك ما سلب منه! تُب إلى الله وكفر عن خطاياك وخف ملك الملوك! والله يتولى الصالحين.

حرر بسلا يوم 05 شعبان 1420

الموافق ل 14 نونبر 1999

عبد السلام ياسين

ملحوظة :

حررت هذه الصفحات بالفرنسية لأسباب واضحة.

أولها أن الهيآت الدبلوماسية والإعلامية لا تقرأ إلا ما حرر بلغة أوروبية... ثم إن هؤلاء السادة والسيدات "المفرنكين" لا يرون في ما ينشر بالعربية سوى ثرثرة ممجوجة، فهذه اللغة ليست في نظرهم الكليل سوى أداة محلية يتواصلون بها مع الرعاى الأميمين.

مهما جهدت لتتواصل مع النخبة المغربية، فخطابك ليس سوى لغط مبهم مادمت تتحدث بالعربية، خاصة إذا كنت ملتجيا لا يتشدد بكلام أهل الحرفة الصحفية ولا يتمضمض بالصيغ المهجنة.